وجه عصرنا في القرن الغارب

بقلم محيي الدين محمد

اطار :

الفنون هي فكر وتطوير وحس انعكاس العالم ، لذلك نلاحظ في فترات القلق السياسي او الاقتصادي او النفسي ، قلقا فنيا مصاحبا ، يواكب كل مجالات الحياة وارتباطاتها .. فمنذ الحرب العالمية الاولى ظهر الى العالم كتّاب من طراز (ريمارك) و (بريخت) من الذين عانوا مأساة توصيل الانسان الى الجنون ، بالحرق وبالغاز وكافة الوسائل الاخرى .. وعبروا من خلال معاناتهم عن رغبة الانسان بالارتداد نحو الاخلاقيات الاولى كرد على فكرة الحروب ،ومنذ تلك الحرب الى الان ، يخرج في كل لحظة كتاب او مجموعة اشعار ، او لوحة تجسم قلقا نفسيا او مرضا يواجهه الفرد ازاء ما يسميه « عدم فهمه ...» ! .. وفي الواقع يظهر القرن العشرون لا اكتراثا جهنميا بالفرد في كل مناسبة، فمعظم القوانين العلمية التي يتسم بها عصرنا قد شجبت الفرد ورفضته وعلقته من قرونه !! أصبح يقاس بالمسطرة ، واضحى دمه مدادا ، ودموعه انصبابا ميكانيكيا لا اكثر ، واصبحت كلمة (عاطفته) ابتذالا يستثير الضحك ومن يكترث بهذا الفرد الذي يحس ويضطرب في عالم كله قانون ورياضة وجبر ؟! اننا ننفذ اقتراح نيتشه بحذافيره : فكما طلب هذا الفيلسوف المتحمس عزل كافة المرضى بدون ان يتناسلوا حتى يمكن للمجتمع السليم ان ينسل الانسان السوبرمان يعزل مجتمعنا الصناعي في صرامة مقلقة كل الافراد(المرضى) الذين يملكون حسا بالفردية اعمق ،على حين يفتح جنته على مصراعيها امام تيار متدفق من الرؤوس اللولبية المصنوعة التي كلها ارقام .. حسابات وارقام ..

منذ الحرب العالمية الاولى ، وحتى الان ، نقرأ ونشاهد ونستمع الى اشعار ولوحات وموسيقى تعالج هذا القلق ازاء ما يسمى الكارثة الفردية الكبرى !.. ذلك لاننا نتحول .. وفي عصور التحول الفجائية هذه ، يتناثر على الارض اولئك الذين ما عاد في استطاعتهم التشبث لحظة اخرى ، بالتطور المندفع .. ويصبح فن اولئك المتناثرين فنا هو مرضهم ويأسهم ، اي فنا متناثرا . وقد قرأنا كثيرا لاولئك الذين اخلوا قبضاتهم عن المركبة المسرعة وآثروا انتظار الموت في قمة العزلة .. وكلما بعدت المركبة عن انظارهم ، قدموا للعالم كتابا او مجموعة اشعار اشد قتاما من المجموعة الاولى واكثر عزلة .. ونقول في هذه الاثناء : انهم ينسونه ..! وذلك صحيح ، بقدر ما هو صحيح ان نقول : انه ينساهم!!

على ان النسيان هو عملية متبادلة ، فهؤلاء الذين تشبثوا بالمركبة هم طليعة عصر جديد اراد من المغامرين الذين يصبحونه ان يمزقوا عواطفهم، وقد استجاب هؤلاء لذلك النداء المرعب ، وآثروا ان يخضعوا للضرورة..

فكل شاعر ورسام ورواء يمن الذين نثرهم التحول العصري هم شواهد ضمنية على ان فكرة العصر الجديدة تنتصر ، وفي عصرنا هذا يصبح الضحية هو الفرد ، والفكرة الجديدة هي الاشتراكية ..

على اننا لو اردنا اكتشاف هذه الظاهرة المرضية لما تطلب منا سوى قراءة او تمثل فنية القرن العشرين في اشعار اليوت .. ماندلستام . كازيمودو ، وفي روايات جيسيك وجيورجيو وفولكنر ، وفي لوحات سيكويرس وموريس اندريه ، وفي موسيقى رحمانينوف ومسرحيات بريخت وكامو وتيار الافلام التي يقدمها ايليا كازان ..

وفي طيلة العصور الماضية ، عصور الفرد ، ظلت الامراض امراضا والفقر فقرا والجهل جهلا .. ذلك لانهم كانوا يكافحون ذلك بالصدقات احيانا وبالزكاة .. وبانتظار المعجزات ..

وكان الكاتب يبدأ الصراع من النقطة التي بدأ بها الكاتب السابق ، وليس من النقطة التي انتهى اليها .. اي لم يكن هناك تطور وتقدم ،ومات مئات الكتاب والروائيين يشتمون الفقر والمرض ويحاولون تغيير المجتمع . وبماذا ؟! بأقصوصة واحيانا بمقال !! واحتاج العالم لآلاف من السنوات كي يقتنع بفكرة الاشتراكية ويعمل بها .. وفي هذه السنوات ..سنواتنا نلاحظ ازدياد عدد الاقلام التي تلوح بكارثة الفردية ، ذلك لان العصر يتحول ...

قرننا هو قرن التحول ، من منتهى الرخاوة العاطفية الى منتهى الصلابة الآلية ، ولذلك حاول بعض الكتاب استباق العصر الالي المنتظر، بدون انتظار التخمر الضروري للفكرة الاشتراكية ، وما يتبعها من تخمر مماثل للفن ، وحاول خلق فن اشتراكي في مجتمع لم يزل فرديا ..وكانت النتيجة هي «عدم فهمه ...» وكانت النتيجة التالية ازدياد حدة الفردية لدى بقية الكتاب .. فالفن الاشتراكي الموجود في بلاد متخلفة ليس الا مهاترات من نوع الفن التكعيبي والتجريدي ، ومن هذه الملاحظة الضيقة نكشف ان الفن الصادق الحقيقي الذي يعبر عن التوتر البالغ في عصرنا هذا ، ليس من التحول الهجين الذي امتلأت به واجهات المكتبات والرفوف بقدر ما هو الذي يدعوه « فنانو التحول » : الفن المريض الساقط !! وذلك لانه انعكاس ووعي فهمه البشر الذين يتحولون من الازدهار الواحدي الى عدالة الدولة ، فصدق نوعية هذا الفن المنحدر هو في تعبيره العميق عن احساس الفرد في غمار هذه الضجة الهائلة بكافة احساساته التي اولها التوتر وآخرها المرض العصبي ..

ولما كانت المدينة بالذات هي المكان الاول الذي تنمو فيه بذور التحول الفائقة ، كان رجل المدينة هو الاعماق التي ترددها قياساتنا : هذا الفرد الذي استحال في صخب المدينة وجنونها عنقودا من الالم تهصر حياته حتى الرمق ، واحدة واحدة ويوما بعد يوم ، وهو يتحول في كل لحظة الى مجموعة من الاعصاب متوفزة حتى الموت .. تدفعه الى ذلك ميكانيكية حياته وخلوها من الامن والهدوء بزيادة الاوصاب المادية العنيفة

التي جرها عليه ارتفاع مستوى المعيشة المستمر ، بتأثير تجارة الحرب التي اقضت مضجعه ماديا ونفسيا ، ففي هذه اللحظة بالذات ، لحظة انقسام العالم الى كتلتين متعصبتين ، وفي لحظة التهديد باستعمال اقسى الوسائل التدميرية ، يجد الفرد نفسه في موقف اشبه بوقوفه على السراط ، فالمطلوب منه هو ان يوافق على ذلك او يقتل نفسه !..

الحرب .. السيارات .. الخسارة الاقتصادية . آلات المصانع . الدخان ، أبواق ، نفير ، باعة ، صياح ، مساء ، مواخير ، ديون ، صداع، قرف .. ثم الدورة نفسها مرة اخرى وثالثة وألف ، في كل يوم .. وتمتلىء المستشفيات العامة والخاصة بمرضى الاعصاب الذين يستلزمون اضافة عنابرجديدة واقسام جديدة للتخصص في كليات الطب ، واخصائيين جدد ..

ان مرض الاعصاب هو آفة هذا العصر الذي يتحول من العاطفية الى الالية .. على ان الافراد التي تعيش باعصابها تتفاوت درجة تحملها لهذا التوتر الفظيع ، فالجمهرة الكبرى تغطي هذا الحس الفائق باستعمالات غريزية صماء ، فهي تتحول الى المساخر ، والى السينما ، ليس بقصد الدراسة او العلم ، بل لوأد عملية التفكير ، ويكفي ان تلاحظ أرضية صالة سينمائية عقب انتهاء العرض ، فحتى الايدي والافواه تنشغل بكافة الوان المسليات والمشهيات والدخائن واللفائف والحلوى ، وذلك لامتاع جميع الحواس مرة واحدة ، وتعطيل الذهن . السينما والمسرحوالحشيش والاغاني العاطفية والنكات والجنس والخمور .. كلها منافذ او اغطية تمنع التحديق الاحمر لعين القلق العصبية .. كلها منافذ يهرب اليها الجمهور الذي لا يرغب الا بتركه في حاله !! على ان هذه الملذات نفسها التي تنبىء بهروبه ، تبين في نفس الوقت مقدار ما يعانيه من الم وتمزق، وكثرة الوقت الذي يمضيه في ملذاته يكشف عن عدم رغبته في التفكير بتوتره أو حتى مجرد رفض وجوده ..

وهناك قلة لا تستطيع ان تعتمد المسكنات السابقة للتنفيس عن قلقها المكبوت ، فهي تتحول باطنيا الى وعي هذا القلق ، وليس الى التنفيس عنه، ومن هنا اصبح هؤلاء يمثلون ــ باطنيا ــ الطليعة التي تهلك في سبيل الاخرين ، بصفتهم الوعي الذي يفكر ويحس ويسجل ..

والحساسية عند هؤلاء تتطور من وعي العالم الى وعي الحساسية نفسها، وذلك يضخم بشكل مهول نتيجة التجربة السابقة ، وهذه العملية الاخيرة أشد اجهادا من الاولى لانها تتطلب انغلاقا على الذات وتفتحا داخليا : وعي الازمة ثم شدة تضخيمها ، ثم وعيها وتضخيمها ، ثم وعيها ، وبذلك لا يمكن لهذا الفرد ان ينفس عن قلقه كما يفعل الاخرون الذين يعون الازمة ويهربون منها ، وان الفرد الحساس الواعي يستطيع ان يمارس كل ملذات الاخرين الذين يستعملونها كمتنفس عن توترهم ، ولكنه لا يستطيع ــ من الداخل ــ ان يطرح عناءه ..لانه منذ اللحظة التي وعى فيها احساسه بتوتره ، قد انحاز نهائيا الى الصف الذي يسجل هذا التوتر ويعلن عنه وهو لا يستطيع المواءمة بين حلول ترفيهية لقلقه وبين تطلبه الحاسم لتخطيط نفسي جديد ، وكل الفرق بينه وبين الجمهور الذي يعكس القلق هروبا الى ملذاته ، هو انه ليس فقط يعي التوتر ، فالجمهور قد وعاه ، بدليل انه يهرب منه ، بل انه يعي وعيه لتوتره ، ومن هنا اصبح لزاما عليه ان يعلن عن ذلك والا جن ! .

ان هذا الوعي الذي يظل يكشف عن سلبيته امام التطور الحاسم للعصر، والذي يعيش منتهى ضعفه أمام تفوق الفكرة الجديدة ، يعود مرة اخرى كما يعود كل مطعون الى جلده الداخلي ، حيث يقبع منظار وردي او اسود.

فحين يكشف الانسان عن المدى الضعيف الذي وصلت اليه ارادته بالقياس الى ارادة الدولة الجبارة ، ارادته التيهي وعيه لتطوره ثم فعل هذا الوعي، يصبح لزاما عليه ، اما ان ينضوي تحت علم الضرورة التي محت ارادته ، واما ان ينعزل عن الكون والاخرين ! . والعزلة هي الجواب النهائي الذي يصرخ به هؤلاء الفنانون في وجه النداء الاصم للعصر ..

وفي هذه الحالة ينقلب الفن الى تسجيل شعوري عميق للمدى الانهياري الذي وصلت اليه أعصاب الافراد ويصبح عليه ان يكون شاهدا ضد التبخر المتحمس لفكرة الفردية ..

وهذا ما وصل اليه الفن فعلا في القرن العشرين : انه تسجيل امين لتوترنا ، وفي نفس الوقت ايماءة حزينة لتحولنا .. ان ارضنا القديمة تتحول .. وكذلك تراثنا وثقافتنا وحضارتنا ، فمن ارض الجهل والتعصب والفقر والوثنية ، تبرز الكف البيضاء التي تهب الحب والعدالة والامن ، فمع ايماننا الصميمي باشتراكية واقعنا ، لا يمكن ان نسيء الى الفن الفردي الذي يعلن عنا ، فهو في الخاتمة ، شهادة أمينة لعصرنا ...

الشعر

المؤلم والمأساوي والاسطوري .. اقانيم بداية القرن . بيد ان الفاجع لم يعرف طريقه الى الشعر الا بواسطة السيرياليين الذين حاولوا صوغ الاحساس المبهم في كلمات ، في كثافة رموز .. اكانوا هم من رد جانبا من الانسان مغمورا في الظل ، الى الوهج المشع .؟! غير ان ميزة العصر ، وهي التي عبرت عنها الفلسفة باتباعها التخصيص الدقيق ، حولت الى الخارج ما كان مطموسا ..

طريق النجاح

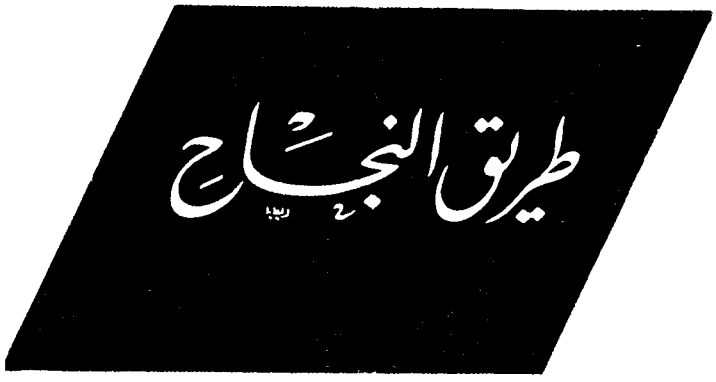

لا يخطر في روعك
أن النجاح ضربة حظ
أو ابتسامة قدر
إنه جهد موجه دائم
وسير طويل واع
وفقاً لخطط مدروسة
وعلى طرقات محددة
ينيرها أمامك هذا الكتاب

منشورات دار بيروت

توفيد . بترارك . شيلي . هيلدرليد .. أكانوا شعراء اذا قورنوا باليوت . أودن . لوركا . الوار . فارج ؟ كان الشعر في مطلع القرن استمرارا للانشاء الملذ الذي عرفه رامبو وفيرلين ، وتحمست له احيانا سيتويل وييتس ، وكان لا بد للشاعر ان يكشف غربة الانسان ، وان يتعاطى الرمز ، بدون ان يكشف عن وجه العالم .. ولذلك كان كافيا ان يبعث من جديد ، في صورة جديدة ، ذلك الوجه الاسطوري للحياة في مطلقها وعمومها وضبابيتها ليصبح الشاعر مجيدا !!..

وفي عام ١٩٢٢ اهتز العالم كله بقصيدة اهديت ببساطة (الى ازراباوند Ezra Pound : Il Miglior Fabro) وقيض لهذه القصيدة التي جاوزت الاربعمئة بيت ، ان تغير الشعر الانكليزي كله ، كما غيرت الرواية الانكليزية المعاصرة (اوليس) للكاتب الايرلندي جيمس جويس .

ولكن هذا التبديل الطارىء بالنسبة للشعر الانكليزي والذي احدثته الارض الخراب ، لم يعمق تأثيره الا اخيرا جدا .. فقد عاد الى الانسان هذا الفن الذي طار كثيرا وهوم في الزرقة والاحلام .. ان هذه القصيدة هي روح هذا العصر في التعبير عن قلق الانسان الحديث .

على حين تسكع الشعر المعاصر لها في منظومات لم تزل تبحث عن شكل مستقر ، وكان (باوند) حيا ، وكذلك كان (اليوت) ، فلم يجرؤ التلامذة من امثال ماكينس واودن ودايلان توماس وسبندر على نشر اعمالهم الا برضى العملاقين ... حتى بدأت المدرسة الفرنسية (برتون . فارج . الوار) في ابراز الفاجع كما عرفته هي ، لا كما وضحه اليوت كمأساة الفرد حامل الصليب ازاء حتمية التاريخ المسيحي ... فهم يشطرون احساسنا بالكون والاخرين ، ويعيشون هذه التقسيمات المتوالية ، فلا العودة الى المسيحية ، ولا الى الطبيعة يشكل درامية الوجود ... انه في التيار الحيوي لعلاقاتنا الصغيرة ، في احساسنا بالاشياء ، في كل هذه النعم والبلايا التي تعيش في صدفتنا وتصوغ بناءنا النفسي . ولهذا نجد (الوار) يغني الفناء ، وماياكوفسكي يغني المذهب ، ولوركا يغني الشهيد الاندلسي .. أما (هيرمانهيسه) فقد اختار ان يغني السحب والصمت !! حتى ليوبولد سيدار الذي غشته حتى الفجيعة حضارة كاذبة فينشد (اه .. النسيان) !!. Ah ! Oublier ...

بيد انه ليس التخصص فقط هو الذي يعطي المعنى لميزة الشعر الحديث ، فقد اضطر الى الصمت الابدي جارسيالوركا مجندلا بالرصاص في خندق بأسبانيا ، ومات هرنانديز سجينا (١) ، وماخدو في معسكر للاجئين ، وبعد عام ١٩١٧ اعدم جوفيلوف بالرصاص في روسيا ، وانتحر ازنين ١٩٢٥ ومايكوفسكي ١٩٣٠ ، واختفي ماندلستام ١٩٣٧ ، وأضحى أعظم الشعراء الاحياء يكتب ديالوجات شعرية لمسرحية شيكسبير عطيل ، ذلك هو موريس باسترناك .. الوجه الاعظم من بين وجوه شعراء هذا العصر ...

ان السلطة تناوىء الشاعر ، لانه قد اختار أن يواكب التحول ، وأن يرفض الجمود ، بالعودة الى المشاكل الوقتية للانسان ، بدل صمته الاليم في الماضي ، فهو يدافع عن الحرية ، مجازفا بحريته ذاتها ، ضد الحكومات القهرية ، كاشفا في الانسان الوهيته ، وباقيا على الدوام ، الرائد المقدام لمستقبلنا ..

وفجاة يكتب (سلفاتورى كازيمودو) قصيدته العجيبة : انسان عصري هذا .. (*)

فاذا كان كل أسى مرده الى القلب ، فان هذه القصيدة قد غزته حقا ، وهذه ابيات منها :

« وعند عجلات التعذيب .. رأيتك ، وكنت انت »
« بعلمك الدقيق المتجه الى التدمير »
« بدون حب وبدون مسيح »
« لقد قتلت مرة اخرى
« كما كان الامر على الدوام ، كما قتل اباؤك ، وكما قتلوا »
« الحيوانات اذ رأوها لاول مرة ... »
« ما زلت رجل الحجر والمقلاع ...! »

ان الشعر الحديث يلاحظ بؤس الانسان الفرد ، ولا جدوى ارادته ازاء الارادة الساحقة للدولة ، فهو ينحني في الم صامت ، ثم يغني : يسوطونه فيغني ، ويقتلونه فيغني ، وليس امامه الا هذا اللون من التعبير عن العذاب .. وان كان جاسكوين يختلف عن هؤلاء برؤاه الرمزية شديدة التعقيد ..

انهم يغنون انسحاقهم ، ولذلك فشعرهم فردي يعيد الى الذهن اعمال شعراء الرومانس والنوستالجي . وبدون استثناء و.هـ. اودن ، ودايلان توماس ، يظل الشعر الانكليزي في المقدمة من حيث انصياعه الذي لا يقاوم للشجن الفردي ، والحنين الى الخصوبة والخضرة والبراءة . وبدون هذا الحنين يصبح الشعر بلاء سياسيا أو اجتماعيا قاحلا ، كما نلاحظ في بعض اعمال أودن الذي يتعمد مداراة ذلك بشدة اهتمامه بالرنين الايقاعي الضخم ...

وسيظل الشعر ، ما دام ارتباطه بالموسيقى شديدا ، في مقدمة الفنون الهارمونية التي تخضع المعنى للشكل ، والشكل للمعنى في ديمومة لا تنقطع ، ولن يستطيع أن يتحول الى بوق دعاوى ، أو صوت حزب معين ، لانه يفقد في هذه الحالة شكله المرتبط بالجذر فقدانا تاما . لقد وجد الشعر كيما يتغنى به ، لا لكي نغرى به ريفيا جلفا على الانضمام لحزب او طائفة ، وما دام هذا ما وجد لاجله ، فأحسن الشعراء هو الذي يقاوم هذه الفجاجة ، ويردنا الى انسانيتنا ...

وفي هذا العصر المجنون يجد الشعراء موضوعات على غاية من الاهمية

---

(١) يراجع مقال (الشعر في اوروبا بين عام ١٩٠٠ - ١٩٥٠) بقلم س.م. باورا ، العدد الاول من مجلة « ديوجين » Diogènes

(*) Uomo del Mio tempo راجع العدد نفسه

دار الآداب تقدم :

قضايا جديدة في أدبنا الحديث

بقلم الناقد المصري الكبير
الدكتور محمد مندور
دراسات نقدية معمقة عن الانتاج العربي الحديث
وعن مشاكل النقد والادب
صدر حديثا

يغوصون في خضمها (*) ،

فهذا العصر هو واحد من عصور التحول في التاريخ ، وقد بدأ هذا التحول منذ السنوات الاولى لهذا القرن ، فالاجيال التي ولدت خلاله يمكنها ان تلاحظ ـ بدون المرور التاريخي الضروري للاعوام ـ مدى الرهق الذي اصيب به الفرد ، ومدى اللامبالاة التي يعامل بها .. وفي النصف الاخير لهذا القرن سوف تصبح هذه المأساة قضية الكثيرين من الشعراء الشبان الذين يخوضون في هذه اللحظة مرارة التجربة ذاتها التي قاساها جيل القرن السادس عشر ..

ان الميزة التي يمكن ان تطاوع الشكل الراهن للشعر الحديث ، بدون البتر بين مظاهره المتعدده ، هو انه يتجاوز عن نبرة العظمة التي رنت في المقاطع الساحرة لشعر جيرار دو نرفال ، ولوتريامو ، ودانونزيو .... يتجاوز ليقبض ، لا على شقاء الانسان ، بل على امله ، فقد امكن ان يصيغ العالم لصوت البشر القائمين في المستقبل والذين يطلبون ان يحيوا ببؤس اقل ، وكثير من العرق ..

وان الشعر الراهن لا يفشل في اكتشاف الفاجع ، بيد انه ينحيه ليحرز للانسان الاشراق المفجع ...!!

(*) يمكن مراجعة (رقصة الموت ..) لاودن . كتبت عام ١٩٣٣ .

الرواية

بدون ان نجتاز الخط بين النسيب والتحديد ، يمكننا القول بان رواية كونستانتان جيورجيو (الساعة الخامسة والعشرون) هي رواية القرن.. وقد كان يمكن لجاروسلاف جيسيك او جوليوس فوتشيك ، من الذين عانوا قلق الانسان الحديث الذي مزقته حربان كبيرتان ان يصبحا من اوائل روائيي هذا القرن ، بيد ان احدهما قد قتل بدون ان يفحص بمزيد من الوعي ، وجه العالم الذي دافع عنه ، وقد قبل احدهما الاخر ان يصبح بوقا دعاويا ، وبذلك اصبح جيورجيو يملك الدرجات الأكثر ، بدفاعه المخلص عن الحرية .

غير ان روح التفلت هذه، التي لا تقاوم، قد عنصرتلا شعوب وسط اوروبا فحسب ، بل الشعب الفرنسي نفسه ... الم نقرأ ضمن ادب المقاومة (صمت البحر ... Le silence de la Mer) والتي اغرقت منذ فبراير ١٩٤٢ القراء في بحران من انسانيتها وطعمها الشاذ ..؟ ولكن الاثر القطب يظل على الدوام اثرا قطبا .. ولذلك طوبت صفحة (فركور) من صمت ودون فجيعة ..

فاذا جمعنا اعمال جيورجيو ومالرو وفولكنر وكامو شهادة لهذا القرن ،

يصبح الحكم مشكوكا في قيمته ، فهناك ايضا اهرنبورج ، وموراڤيا ، وهمنجواى ..

وهنا يصبح واجبا ان نفرق بين شكلين من اشكال الرواية الحديثة.. فهناك الرواية الحياتية ، التي تظل في اعمق صورها تابعة للطابع العاكس، بكل الملكة النادرة التي تعبر عن انفعال الروائي بقضايا الحياة العادية بكل اثقالها وامتلائها وقذارتها .. ان الروائي يصبح تكنيكيا مفرطا ما ظل القلب يحمل نفس الهموم ، ونفس الخطايا .. ولذلك ظلت روح همنجواى ونظرته هي ذاتها في الحربين الايطالية ، والاسبانية ..

انه يضحي همنجواى الناظر التمثال ..

والشكل الاخر هو الرواية الميتافيزيقية ، والتي طوعت ذاتها كي تمسك اليها اعمق ما في الفكر من قضايا ، فهي لا تسلم من خلط القارىء، بيد انها تفترض ابدا قارئا .. انها تشبه اللوحة التي تنتظر المريض بمرضها نفسه ، ولذلك تصبح عالما مفتوحا ومغلقا بالوقت ذاته ،وهنا قيمتها الاساسية ..

ان الرواية القديمة كانت حكاية اي شيء .. وما الذي لم يكتب فيه ستاندال او فلوبير ؟!

اما الرواية الراهنة فهي قلق الانسان المدفون حتى العنق . انها القلق النبوي ضد اشكال الخطر المتصيدة للانسان ، وكما يحزر الكلب العجوز، الذي يفش بعظمة شهية ، في حين ينوي صاحبه ان يرديه بطلقة بين عينيه ، كما يحزر هذا الكلب الذكي نية صاحبه ، في هذه النظرة المخلصة الاكثر انسانية ، يصبح الروائي العصري املنا في ان يصد هذا التيار الجارف نحو العبودية بتأثير من هذا الارتباط الحديث بين الفلسفة والرواية ، كشكل يؤدي الى الخلاص النهائي ، وليس كحيلة ابدية يبقى الشكل خاضعا لها ..

ان الضمور الذي يصاحب فن قراءة الرواية، هو بسبب من تحول القراء الى مشاهدة السينما ، التي هي دائما رواية حياتية ، بيد ان قراء بعينهم ما زالوا يعيشون التوتر العنيف الذي يعرضه مالرو في (القاهرين)، و (المصير الانساني) !! كما تمزق عند كامو ذلك الحد الشفاف الذي يفصل بين منتهى وحشية المتحضر الحديث ، ومنتهى انسانيته ...

ان الروائي الراهن يكف عن ان يكون راويا ، ويتحول ببطء الى ان يصبح فيلسوفا ، وبذلك يسقط عنه البدائي والتكنيكي والحادثي ، وتتمكن الرواية من مقاومة فجاجة الالية بالارتداد لا الى الحيلة القديمة ، وهي كشف الخصم وتعريته ، بل الى العكس ، تعرية الذات ... لتثبت هذه العملية مقدار رضائنا بقبول ما يمكنه ان يكون ملائما من افكار وتوجيهات قبولا لا اراديا ، لانه حصيلة نمو داخلي ، وعملية باطنية ، ورفض القيمة الذي ينشأ عن عملية التعرية هذه ، هو رفض جذري معناه استحالة ان تربط هذه القيمة بالمكنون السري للبشر ..

ان مالرو يخشى الموت الذي سيقبله فيما بعد على انه ـ بحد تعبير ايتيامبل ـ « ذلك الجدول القليل الغور ، الذي اسيئت سمعته ... » وهو في نزاعه الشرير ضد رغبة الارض في محو كل ما يتصل بالانسان، يحاول ان يصل الى اثر هو فوق الفناء ، ولذلك ملكت هواه اهرام مصر المزروعة في الصحراء ضد الزمان .. ومعابد المسافات المصبوبة في وديان الصين وبين النهرين ..

ولا بد للرواية ان تسهم في اعادة فحص الانسان الذي يعيش اعمق مما يفكر ويحسن وسائل عيشه ، اكثر مما يدري لماذا يموت .؟! وذلك لان اندفاعنا الاخرق في تيار لاندري مصبه ، قد يؤدي بنا الى نكسة عظمى لا تتحملها قلوبنا التي عاشت في الحلم حتى الان .. فنحن نحيا واملنا في عظمة الدولة يسكب ظلا باردا فوق راس ينهش حتى العظام (١) وهذا الرأس المنسي هو جمجمة الفرد الذي بكى واعلن عن المه البائس ثم مات في هدوء ..

فرواية جيورجيو بالنسبة الى هذا العصر المتحول ، هي شهادته ، وقد لا يمكن استثناء الروائيين الذين ظلوا مخلصين الى محنة الفرد من هذا الشرف ، وقد كان يمكنهم بتركيز ادق ان يفصحوا عن هذه المأساة كفولكنر مثلا ، ولكن هيامه باغراق ابطاله في جو من التشكك والعفونة والتعب ، نسج حول هذا الجو ظلا يمكن ان يفهم منه ، رغبته في ان يعزى هذا الجنون الى الوسط والوراثة ، ومن هنا يمكن ان نلاحظ مدى البعد البائن بين الشعر والرواية ، فلا يمكن للشعر ان يكون علميا هكذا، والا فاحت رائحته وبهت لونه ..

وقد كان يمكن لجويس فضل اكتساب ميزة الوجدانية الفردية في الرواية ، لو كان ذلك ما نقصده بالحس الدرامي للفرد ، فيمكن عد هذه الطريقة وكذلك طريقة (دي جاردان) في « لقد قطعت اشجار الغار »عملا شكليا بحتا يمكن ان يقارن باعمال كاندانسكي التجريدية في التصوير: خطوط وظلال متقاطعة واعماق ومنحنيات .. بدون لحم ودم وحيوية .. ولذلك كان على جويس ان يعيد النظام مرة اخرى الى ابطاله .. وقد اضطر الى فعل ذلك .. على ان هذا الحس الدرامي الذي هو نتيجة فصل روح العلم عن الرواية في جنوحها الاخير لاحتواء الفلسفة ، هو عصري جدا بقدر ما هو منعدم في اثار بداية القرن ..

ولذلك لا يمكن العثور عليه الا في مخطوطة كاتب لم يزل حيا ، فلا دستويفسكي ولا توماس مان امكنهما ـ مع حسهما الفائق بالفردية ـ ان يلاحظا هذا الانسجام الدخيل الذي اصبح هدى حياتنا ..

.. وفي الجانب الاخر من الارض ، في الاتحاد السوفياتي ، ازدهر شكل معين من اشكال الرواية يمكن ان يسمى بالرواية الاشتراكية الواقعية، ومن خصائصها يمكن ان نلاحظ مدى تبعيتها للنظرة التي يدين بها كاتبوها .. فالمأساة هي التكنيك بالذات ، وحس القارىء بالندم او الاسى يمكن ان يكون مفروسا في القالب الثنائي للرواية ، وقطعا تصبح هذه العملية عبثا من الروائي والقارىء معا . فبدون مأساة مشتركة ، حتى في اعم الفنون واشيعها كالرواية ، يصبح العمل الفني نصيحةمن الخارج ..

وبداهة لا يمكن زرع هذه المأساة في التحولات الفجائية للاشخاص، فكل هذه الدعائم هي حلول ترفيهية لا تغش القارىء الحذر .. بل بالعكس تزيده جفوة ..

اننا نتحصن في عزلتنا لاننا نلاحظ التيار الزاحف ونرصده ، ولان الرواية هي نفسنا المبسوطة ، ولوحتنا .. امكن لها ان تلاحظ ضياعنا وسط تيار من العبودية يزحف على رقابنا .. فتكلمت هي قبل كل الفنون عن حريتنا ، وعن قدسيتها ..

الرسم :

يرتبط هذا الفن اكثر ما يرتبط بمعارض التصوير ، ولذلك فهو اقل انتشارا من ان يعكس في الجماهير قضية معينة ، في زمان معين... ونتيجة لهذه الحقيقة بالذات اصبح هذا الفن التقليدي حرا في ان يتبع قواعد الفنان الشخصية ، منزلقا في لابيرنت من التعقيد الشكلي الغامض.

---

(١) استعرنا هذا التشبيه من الكوميديا الالهية (اوجوللينودلا جيراردسكا) دانت (الجحيم : ٣٢ : فقرة ١٢٧ .

ما دامت الرقابة ضيقة ، وما دام الجمهور بعيدا ..

ان اللوحة ليست كالنغم ، فهنا يصبح الملحن حرا في فرض نشيده، غير ان الرسام حريته في حرية الاخرين ، وذنبه في انه تعبير عن كثافته الخاصة ، اكثر مما هو تعبير عن كثافة الاخرين .

ان الرسام هو عكس الموسيقي ، فالعمل النغمي مفروض على المستمع، اتلمس فيه حرية الملحن ، ودنياه ، اغوص فيه لاحيا رؤاه ووهمه .. بيد ان اللوحة هي التي تكتشفني وتعطيني مزيتي .. انها تعيد خلقي لانها من وحشتي وصفائي ..

اللوحة هي ضمير معلق فوق جدار ، وهي لذلك مطموسة بما يعرقل اكتشافي في ذنوبها بالف عائق وعقبة : اللون . الاسلوب . الموضوع . الخلفية . التناول .. الخ .. وكل شبكة من هؤلاء معروضة امامي هكذا: بهذا الصفاء والود والعطف المبالغ فيه .! انها تجتازني ابدا ، في حين تصبح رائدتي التي هي عيني اسيرة قيودها الخارجية، بيد اني من جديد ،احاول، لا رؤية اللوحة .. بل سجنها في داخلي حيث للشفافية وزن، وللعبير وزن ... وهناك .. في داخلي يصبح ضمير الرسام حريتي ، وتنطفيء لوحة الجدار الى الابد !.

هي هذه ، ميزة الرسام الراهن .. : ان يشاركني وحدتي واساي، ولذلك ارتبط بالحرية والعدل والديمقراطية ، على حين اشترك الرسام القديم بالدين والحلم والاسطورة ..

وفي بداية القرن كان الرسم هو فن الجفوة بين اللوحة والناظر ، اذ كاد الشكل الخارجي يصبح معبرا محطما بين ذات الرسام وذات الناظر، وكانوا يحملون اللوحة اثقالا من الرموز والاشارات والعلامات ، فيوقعون الناظر في مشكلة ابدية ، كالذي حدث للزخرفة العربية التي تبدأ من المطلق وتنتهي في المطلق ، بدون ان يكتشف الناظر الحائر بدءا او نهاية ، وقد قرنوا الزخرفة العربية بفكرة المسلم عن الهة !! فكيف اهتدوا الى نية الخطوط التي كانت تحملها اللوحة في مطلع القرن ؟!

يمكن لفن الرسم الراهن ان يصبح ضمير البشرية كلها ، فما عادالرسام صابغ اقمشة ، او ملون جدران، انه يرسم (جيلنا الحاضر) (١) ومعركة القرية ضد الفاشيست (٢) .. انه يتبدل ، ويتطور اذ يدرك معنى ارتباطه بالحرية وبالدم . بمستقبل البشر وبالتاريخ .. ان هذا الفن الذي كان متعة حبيسة جدران وسقوف الكاتدرائيات والكنائس ، يصبح فن تغيير البشر من داخلهم ..

وبدل ان يكتشف الرسام نفسه في مجون عربيد ، او طفيان حاكم، فانه يعرى حتى اللحم والاعصاب هذه النفوس التي تحمل صلبانها في صمت ، وتعيش من جديد خطاياها المضاءة بنور جديد ..

انه فن طرح القداسة ، والعودة الى الانسان ، وقد اتجه لذلك ـ اخيرا ـ الى التجريد متصورا ان الداخل الرمزي لعلى نفس سعيد الداخل المكشوف من حيث القيمة ، واذا غض النظر عن معنى التجريد بالذات ، لاحظنا ان محض وجوده يعد دعوة لتشييد روحانية من نوع جديد ..

ان الناظر لا يقع في مشكلة الخطوط هذه ، الا ليفر منها نحو اخلاقية باطنية ، فليس هذا الشكل رمزا لشيء متعين بالخارج ، ولنلاحظ قبل كل شيء ان الرمز هنا مقصود لذاته وليس مجعولا كجسر يوصل الى المرموز به !.. وعلى الناظر ان يستدرج الرمز الى داخله ليعقد قرانا بين رمزه هو، وهذا الرمز الدخيل.. فليست اللوحة او الجدار المرسوم سلما يرقاه الناظر كي يصل الى داخل الفنان .

وهذا الاشتراط الحديدي : ان يظل الفنان مشدودا الى جمهوره،يعقب اشتراطا اشد تطلبا ، وهو ان يعلو الناظر باستمرار ليبقى في اسر الفنان نفسه ، ومن هنا يرتبط هذا الفن بالتطور وبالتحول العصري .. فضلا عن تأكيده على شفافيتنا وحريتنا ...

النحت :

قطعة الرخام او الحجر هي صليب المثال، اذ يسمر فيها قتلاه وضحاياه فاذا كانت هي سجينة الوحدة في شكلها الابهم السابق ، فهي تظل سجينة الوحدة نفسها بعد اذ يطرق الفنان ابعادها ، ولكنها في هذه المرة

---

(١) لوحة رسمها « سيكويرس » المكسيكي ونال بها جائزة « البينالي » الفينيسية عام ١٩٥٠

(٢) « جويرنيكا » للرسام الاسباني العظيم بابلو بيكاسو

يطلب هذا الكتاب وسواه من الكتب العربية من
دار الثقافة ومكتبتها
بيروت ـ ميدان رياض الصلح ص.ب. ٥٤٣ تلفون ٣٠٥٦١

وحدته هو ، وليست وحدة الحجر .. ومن هنا امكن لنفس قطعة الرخام ان تحيا في سجنين متلاحقين !.

وفي البدء كان الحجر يستحيل وجوهـــا واجسادا لموتى واقفين او موسدين : موسى . موزار . ليدي فردريكا . بولين . دوبروليوبوف.. بدون ان يؤدي هذا التبديل الطارىء الى اي تغاير نوعي ، فما زال الحجر حجرا ، في حين يصبح موسى وموزار عظاما جيرية ، وبذلك اصبح هذا الفن عقيما ، فقد اضحى فن الميادين والمناحف ، وردهات الاستقبال ،وارتد المثال تاجرا ينافس في نوع الحجر والحجم .. ثم اجر (القطعة ..)!!

اما الان ، وعلى يد (جياكومتي) (مور) و (اهرليش) يصبح الحجر طعما مريرا وشكلا مصفرا يبدو فيه الانسان لنفسه مترجحا فوق هاوية مريعة هي حاضرة .. وباستمرار هي حاضرة وهذه مشكلة عرضها اهرليـــش مرارا ..

الم يكن القلق والخوف هما وجهي المستقبل ؟! اما الان فالتوتر هـو العذاب الذي يدفن اشواكه في القلب : الى اين نسير؟.

الحرب الاولى . الحرب الاسبانية . الحرب الثانية . القنبلة الذرية. الهايدروجينية .. الكوبالت .. الموت الدمار .. كل هذه ، اصول جذرية لرعب (اهرليش) ، وذعره الاصيل ..

يصبح النحت رهينا بكلمة النحات ، وقد اثر ان تكون لغته الرمـز، وعلى ذلك يتأخر هذا الفن خمسين عاما عن الرسم ، وسيظل كذلـــك ، فاللوحة قد نزعت الاطار الضيق الذي كان دنياها ، واصبحت تجد مكانها في الجدار .. في مطلق الجدار ..

اما النحت فما زال الحجر والرخام والصخر حدوده * ، ولذلـــك يضحى هو بالمجالات العظيمة التي كان ممكنا ان يخوضها ليستعمل الرمز والوشاية ..

لقد اعاد (مور) جانبا من هذا الفن الى ميدان اعمق ، ومطـلوب بشدة .. غير ان هذا الانقلاب المفاجيء ، من عرض باهت للكتلة ، الـــى التجريد ، سيفقد هذا الفن اشد انصاره حماسة .. ان لم يكن قد فقدهم بالفعل ..

اما الغضب فقد عرفه (جياكومتي) الذي فنط من محاولة اكتشـــاف سر الحياة في الانسان ، وآثر ان يعيد تخطيط معاركه الاولى ضد الزمن والكتلة والمسافة ..

والزمن في المسافة ، في تخطي المسافة ، بيد ان الناظر يرفض ان يخاطر بزمانه ، في سبيل زمان متخيل وزائف ، فهو بدلا من رعشة المخاطـــرة ، يغيب في الامان الميت ..

وان جياكومتي يبحث عن ناظر معين ، وهو لا ييأس ، فلا بد من وجوده في مكان ما . اذ ليس المثال وحده هو الذي يرغب في ان يرى صفاء اشد لهذا العالم ، فيكفي ان يكون الراغبون في تقدم العالم الفا ، ليتمكـــن جياكومتي من الموت في سلام ..

وهذا الفن الذي يعد اقسى انواع الفنون ، لتبقيته المقلقة الى وجـــوه واجساد البشر ، يعاني الامرين من مشكلة التعبير التي تنحى عنه جمهوره، فلا فرديته ، ولا انصياعه لاشكال اخرى من التعبير يمكن ان يفتفر لـــه بلادته وجموده .. وقد يموت هذا الفن بدون كلمة رثاء او دمعـــة ..

مع انه يمكن ان يكون مرآة تعكس توترنا، او على الاقل تخفيه تحت اطمار من مشكلاتها وطياتها ..

وما دام قد امكن لنا ان نلون قلقنا ، فماذا يمنعنا من تكتيله في الصخر؟ ولكن اكتشاف ذلك هو عبء الجمهور الذي ينصرف عن هذا الفن نهائيـا ليعشي بصره في تيه الالوان الذي يعرضه بهو الرسم . على ان ذلك هو هواه الخصوصي ، فعلى فن النحت ان ينصرف الى جمهور يمكن ان يكون اعمق بصيرة ، واشد تفتحا على داخله..اما بالنسبة الى بقية الجماهير.. ففي يوم ما ... من يدري ؟!

الموســيقى

تثبت الموسيقى باستمرار اعراضها عن ان تصبح متضمنة لمعنى معين ، مكتوب او مشار اليه ، ولذلك يقرنون بها صفة المطلق الذي لا يؤدي الا لزيادة البلبلة ..

غير ان النغم الذي يختلف شكله ومضمونه وقاعه عند باخ وبيتهوفـن وماهلر ، هو دعوة لاكتشاف الذاتي في الموسيقى ، لا العام ..

الموسيقى هي كآبة توترت حتى النغمية ، كآبة نفس في الوحدة : ضد الكون برمته ، وهي لذلك اروع وانفس اشكال الخلق الفني ، اذ ليست هناك موسيقى ، كما هو هناك فن تصوير طبيعي او فن عمارة .. بل ليس هناك الا موسيقى ملحن بذاته ..

لماذا كان الغناء . ؟! لنشأة الفنون اسباب ، الا الموسيقى التي هـــي التعبير الاشد خصوصية عن فرحنا ، والاشد تأكيدا على بؤسنا والمنا،ولذلك يستدعي اللحن العظيم الاسى أكثر مما يدعو للفرح ..

كانت الموسيقى حتى نهاية القرن التاسع عشر تابعة اما للمـدرســة الالمانية المتجهمة ، واما الى المدرسة الايطالية الحقيقية .. الصرفة .. فقد ظلت تدين لبيتهوفن وفاجنر بشكلها وقالبها ، حتى اطل القرن العشرون في وجه شوينبرغ الذي عكر صفاءها بقضائه على نظـام السلم الالماني، وادخاله نظام السلالم المختلفة التي تتطلب توافقا جديدا ، وظن تبعـــا لهذا التجديد ، ثم لمحاولات سترافنسكي المماثلة ، ان الموسيقى قد ثبتت نهائيا في ذلك الشكل الذي اعاد لنظام الموجات zeitmotiv وجوده .

بيد ان التطوير الشكلي مسخ النغمية ، واضاع مهمة الايقاع ، واضحت الموسيقى هما يقطع الانفاس .

---

* الحديد والاسلاك ، وكافة هذه المهازل المعدنية ، بعيدة عن ان تصبح فنا حقيقيا .. انها لعبة مسلية وليست حدودا لمأساة الفنان ..!

* هل تتذوق الادب الروائي الخالد ؟..
* هل تقتني روائع القصص العالمي ؟..
* هل انت ممن يقدسون الحرية ؟..

اذا كنت من هؤلاء فاحجز نسختك من كتاب

ظـلام في النهـار

الرواية العالمية الفائزة بجائزة احسن واعمق عشر روايات ظهرت حتى الان في اوروبا

تأليف الكاتب العالمي : ارثر كستلر

تصدرها قريبا ــ دار الصراع الفكري ــ بيروت

اما التطوير الحقيقي ، فقد بدأ منذ اللحظة التي اطل فيها رحمانينوف بوجهه الذي غير تاريخ الموسيقى ، فلم تكن الانغام الا حكاية مموسقه عن .. وعن .. بدون ان تصل الى وحدانيتها عن طريق المرور المشع بداخل الملحن المأسوي ، وقد قص علينا الملحنون الاول قصة براندنبورج. جيزيل، فاوست . جولييت . الامبراطور . القدر . سنيجفريد ...

كانوا يطابقون بين الحادث ، والكآبة العمومية .. اي يباشرون عملية التوصيل بالرموز عن الحدث مباشرة ، كما فعل احد الملحنين الاميركيين حديثا ، للتعبير عن زحمة طريق ، فابتكر اصوات العربات والنفير وصفارات رجال المرور .. في قلب السمفونية !! ولذلك اختلطت الكآبة الحقيقية التي تفرضها الموسيقى بالمعنى المفترض الذي ينسى تناقضها وسخفها ..

اما هذا الملحن الغريب الذي عاش فشله ، وكبرياءه ، وموته .. فهو يصل بتطويره الجذري للميلودي الى ما يطلبه مطلب النغم من توتر .

اهي ميزة الفنان العظيم ان يردنا الى براءتنا ؟!.

بيد ان البراءة نفسها تفقد معناها عند هذا الملحن الجليل الذي يدقق في كل اختيار .. فليس لاي من المعاني الانسانية مغزى عندما يزداد التوتر بين الوجود الانساني وغيابه. على ان طهرا شفافا يسمح لكآبة الملحن ان تنتزع فرح المستمع الغارق في صحرائه فتصبح الكآبة كآبتين ، واحدة للموسيقى ، والاخرى كآبة المستمع الذي يتردى في النشوة والالم ..

ان الموسيقى تعود ، على يد رحمانينوف الى روح البشر وعذاباتهم،وهي في نصف هذا القرن الاخير تعبير عن تعاسة حضارة وفشلها .. ولذلك فهي دعوة لحضارة جديدة ... يصبح الامل فيها – على الاقل – موازيا للشفاء !!

السينما

لا شك ان السينما هي فن هذا القرن بالذات ، والذي يؤدي تطوره الصناعي (ادخال الصوت ، الالوان ، زيادة مساحة الشاشة . التجسيم) الى استعماله بديلا للحياة ، فاللوحة واللحن والكلمة لم تفقد اصولها الاساسية الثابتة ، غير ان الفيلم قد فقد جزءا حيويا منه باستعمال الصوت البشري .. فالتعبير الوجهي الذي كان قمة هذا الفن الصامت ، يهبط الى الحضيض، لتشتد سرعة الحوادث، ويزداد انتباه المخرج الى واقع الحياة في بساطتها واجمالها ..

ان الفيلم يحشد امكانيات الفنون جميعها .. في انه يستعمل ميادينها، ويباشر عظامه في قلب الناس ، انه يظل المصلح ، من خلال العرض الناقد للمنعكس والمائل ..

السينما هي فن اعادة البشر الى صوابهم ، وقد كانت في بداية عهدها ، فن رؤية الحياة !. انها كالموسيقى مفروضة علينا ، تضغط ذواتنا في ذات البطل ، ومنذ لحظة الاظلام حتى نهاية الفيلم تظل حساسيتنا في خدر سحرها وطلاسمها ... نصبح بدون وجوه ، وبدون ذوات .. ولا ارادة فردية ، حيث يستحيل كل فرد الى صورة من الارادة الجماعية للصالة ، في رغبة الوصول الى جواب للاشكال المعروض .. ومن هنا يصبح هذا الفن اكثر التصاقا بواقعنا وتعبيرا عنه .. انه يعرض مرارة تجربة مثارة امامنا ، بدون ان يصبح في امكاننا التدخل او مغادرة القاعة..

ولذلك فنحن نتلقى الحكاية السينمائية كالقدر المكتوب ..

نحن فضوليون .. والسينما تعرف ذلك !! فكم منا من يود بكل قلبه ان يفتح ثغرة في حائط جاره ليعرف اكثر .. وكم منا من يود ان يرى حتى الختام حياة تعرض بكاملها امامه .. بدون ان يصبح عليه ان يقضي عمره كله متابعا ؟!! ان كثيرا منا يودون ذلك .. والسينما تعرف هذا ...

ولذلك تعرض لنا هذه الفتحة في جدار جارنا لمدة ساعتين ، فنعرف حياتهم كلها ..

اما هؤلاء الابطال فليسوا نحن ، بيد ان حزنهم هو حزننا ، وقلقهم قلقنا . انهم يربطوننا في مرارة اكتشاف كل لحظة ، وعلى النقيض من كافة الفنون الاخرى .. يظل الفيلم ، طاقة خرساء تعرض نفسها دون ستر ودون رموز ..

.. ان نكتشف عواطف الناس !!

اذا كانت هذه الصيحة هي التي مهدت السبيل لخلق المسرح ، فهي نفسها النصيحة الاخلاقية التي يرعاها الفيلم ويبذر بذورها في كل انتاج كبير .. فعلى اساس المذلات المرهقة للبشر من اقتصادية ونفسية واجتماعية ، يصبح على الفيلم ان يدعم مشاركة الابطال النفسية لمرض الجماهير ..

يطلب هذا الكتاب وسواه من الكتب العربية من
دار الثقافة ومكتبتها
بيروت – ميدان رياض الصلح ، ص.ب ٥٤٣ تلفون ٢٠٥٦١

ومن هنا سر نجاح الفيلم الايطالي الحديث ...

وقد كاد هذا الفن الان ، لقوته وتنظيمه ان يصبح علما وصناعة .. بيد ان احتياجه الدائم الى المخرج الفنان ، والمصور الفنـــان ، والموسيقي الفنان .. ينأى به عن الانزلاق ـ حتى الان على الاقل ـ ففي نمـاذج الفيلم الاميركي نكتشف مخرجين من محترفي التجارة ، وكذلك موسيقيين لا يأبهون بالفنية ، قدر ما يرعون حقوقهم المالية ..

ان للفيلم وجوها عديدة ، فقد خدم علم التشريح والجراحة ، وخدم الاكتشافات الجيولوجية وعلم الفلك .. وما زال يخدم التطور العلمي في كل تقدم تكنيكي له ..

غير ان هذا الوجه هو علمه ، اما وجهه الفني ... ففي صلته بنا .. بالذين يجلسون في ظلام القاعة الاسود ، في وجوههم امل باسم ، وقلق حيران .. في كل ضحكة ، او ارتجاف شفة .

---

* بعد ان تدخلت اصابع الفاتيكان الحانقة ، ومن ورائها الاصـــابع الرأسمالية ، ممثلة في شركات الاحتكـــار الاميركية ، توقفت السينما الايطالية عن تقديم غذاء الجمهور ... واكتفت بتقليد هوليوود تقليـــدا شائنا .

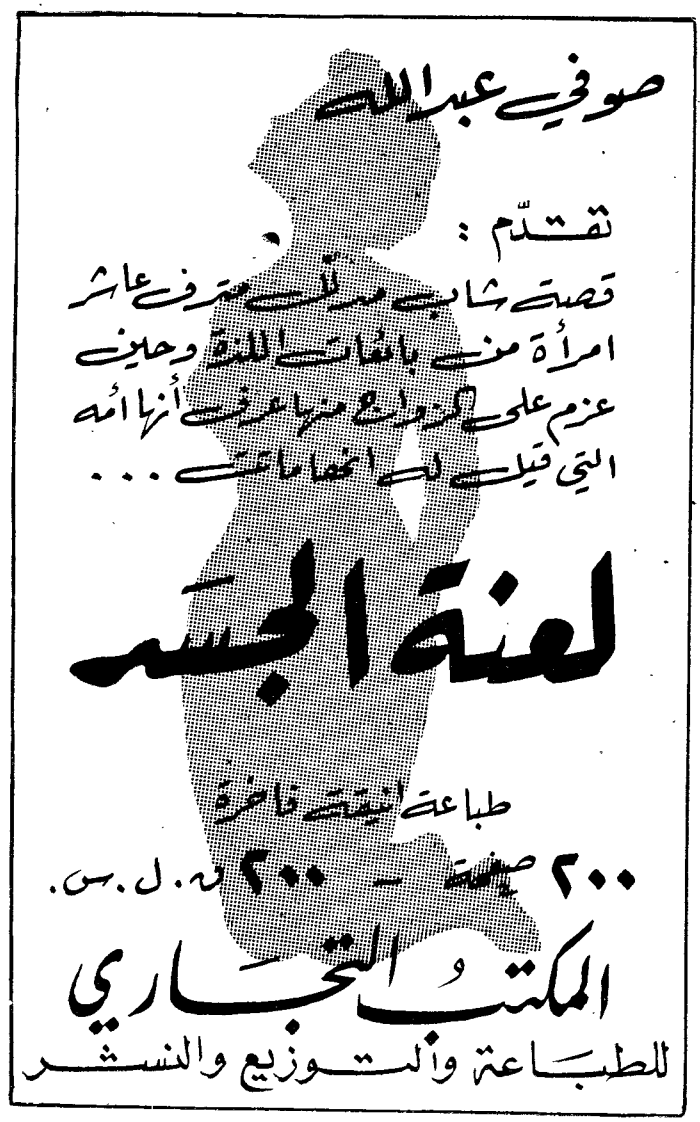

ان هذا الفن الذي يكتسب في كل لحظة انصارا جددا ، يطوح بظفره الماضي ، ليشرف على معارك مبتدئة ، فهو الوجه الحديث لعصرنا والحامل لرسالة تقدمنا ..

انه يطورنا ويربطنا الى انسانيتنا لانه يطهرنا .. كما طهر اسلافنـــا المسرح اليوناني ..

بيد ان احتياجه ، واحتياج قواعده لادراك الحرفيين الفنانين ،يعادل احتياجه الى الناقد العظيم الذي يقف بالمرصاد ضد كل عملية تبغي ربحا تجاريا او دعاوة معينة ..

انه فن بث اخلاقيات البشر في ضمائر ابطالها ، لتعود مرة اخرى الـى النفوس الخاشعة في الصالة ، لتكتشف فيها اغوارها ورحابتها ...

نحن نحب انسانها الذي يسلك مسلكنا الطيب ، ونكره الاخر الـــذي يسلك مسلكنا الشرير ، ومن هنا امكن لضمائر الابطال ان تطورنا ..

ان اللوحة هي ضمير معلق .. اما الفيلم فهو اخلاقنا بالذات ...

المسرح

في هذا الوجه الكفيف مـــن وجوه فننا من الاحساس بالتراجيدي الفردي ، ما يمكن له ان يحوز الى جانب كونه فن الالم الانساني ، صفة اخرى هي فن العظمة الانسانية ..

المسرح هو فن كفيف ، وكالعميان ، يملك هذا الفن من الحذق والبصيرة الداخلية ما يكفي كافة الفنون الاخرى وزيادة.. فهو منطو على الداخل.. وداخل الممثل المسرحي (الوسيط) ينقل بعملية في غاية الرقة ، داخـل المؤلف الى داخل الناظر ، لينتزع من هناك ، مستخدما لذلك الشفقـــة والضنى ، الحس بالوحدة ويطرحه بعيدا .. الحس بالوحدة والعذاب والالـــم ..

ان المسرح يسحق الامنا .. في اللحظة التي تسحق فيها بدون رحمة، نفسية تتلوى من العذاب امام ابصارنا : لا كف يمكن ان تساعد هـــذا الرأس المعذب ، ولا كلمة يمكن ان تمنع سيل الدموع من هذه العيـــون الشفافة .. وقدر غريب مجهول يضرب بالضحية ارضا .. ولا نملك الا ان نتلوى ونبكي ونصرخ ، وهذا البكاء هو منفذنا بقدر ما هو اسانا ..

وفي ختام المسرحية يبقى العذاب مطروحا على الارض ، ويخرج النظارة يحملون قلوبا جديدة مبذورا فيها الحب والشفقة ..

فقد سحق الالم في الداخل واصبح الفرد جديدا ومستعدا للتضحية مرة اخرى ..!

ومنذ اونيل ، المسرحي الاميركي الذي لم تنجب القارة ، ولا اوروبـــا مسرحيا في مثل عمقه او عظمته ، لم يحظ المسرح الاميركي بتمثيلية يمكن ان تقاس بالامبراطور جونس او الرغبة تحت الصفصاف او اناكريستي ، او فاصل غريب .. التي يمكن ـ بالرغم من ان الاداء فيها عجيب وخارق ، وذلك لاحتوائها على افكار الابطال ، وليس سلوكهم وحوارهم فحسب ـ ان تعد واحدة من المسرحيات الاكثر حساسية في مطلق تاريـــخ المسرح العالمي ..

وهذا المؤلف ، الذي لا يمكن الحديث عنه ، بغير الانصات للنقاد الـــذين يعتبرون مجده ضرورة لتأثره ستريندبرج ، قد اثر في المسرح الحديث بقدر ما اثر ابسن ، واكثر مما اثر شو وبيراندللو معا ! وذلـــك لانـــه اخرج الدراما من النطاق الضيق نسبيا ، والذي حدده لها ابسن ، وحاول فـــي

ـ البقية على الصفحة ٧٢ ـ

وجه عصرنا في القرن الغارب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦٤ ـ

عظمة نادرة ان يعيد للانسان احساسه بشرف صراعه ضد ظروفهووراثته وما يسميه اجمالا قدره .. ملمحا في نفس الوقت بمقدار انتماء هذه القدرية للواقع احيانا وللخرافة احيانا اخرى ..

ومنذ هذا الدرامائي النادر ، وجد المسرح نفسه بواجه من الاسى اكثر مما واجه مسرح ايوريبيدس وسوفوكل وآتيل ، لان للدراما اليونانيةصفة واحدة يمكن ان تقاس بها ، وهي احساس البشر بالنزال الدائر بينهم وبين الالهة .. ثم انسحاقهم تحت وطأة هذا الصراع غير المتكافيء.

.. على ان مسرح اونيل يكتشف في لحظة الانسحاق بالذات ، ان الانتصار كان ممكنا .. لو لم يكن ذلك الضعف النبيل الاسر ، الذي هو خاصة نادرة للبشر ..

وبالرغم من التأثير العظيم الذي احدثه يوجين اونيل في المسرح العالمي جميعه ، نلاحظ ان المسرح الفرنسي الراهن يتنكب هذا الطريق ، ويؤكد على عبثية الحياة من خلال التأكيد على وحدة الانسان وضعف مناقبيته.

ان هؤلاء الممثلين الاكثر تأكيدا على عزلة الفرد ، يكونون دعائم المسرح الفرنسي الحديث ، متجاوزين عن النبرة الخارقة التي استهوت ممثلين من طراز كورناي وراسين ، ومبتعدين في نفس الوقت عن التأثير الساحق لتلامذة اونيل من امثال وليامز ، ميلر . اندرسون ، الذي يستمد عالمه الشعري من نفس المعين الذي يستمد منه كريستوفر فراي ، وهو شكسبير .

على ان هؤلاء لا يحتفظون فقط بالمظهر القشري لتأثرهم باونيل ، بل يتجاوزون ذلك ليعلن احدهم عن الامراض القذرة التي تفتك باحشاء الانسان ، وهي العنف والتوتر والاضطراب والمرارة ، وليعلن الاخر عن الافلاس الروحي للفرد في مستوى الحضارة الالية الحديثة ...

ان المسرح الحديث يقف في مستوى الفنون الاخرى من حيث انصياعه للدور الذي يجب على الفن ان يقدمه لنعرة الانسان ، على انه يفوقها جميعا في قدرته على تقديم الحلول ناصعة ومريرة ، خلال التجربة الدموية التي يخوضها انسان ذبيح على مرمى ابصارنا ...

ومنذ وجد المسرح ، اصبحت ارضيته الخشبية مذبحا لقلق الانسانية..

هذا القلق الذي تفخر بحيازته الفنون العصرية .. على ان هذه المعجزة التي فجرها المسرح منذ الاف السنين ، تدل بمقدار الحساسية التي يتمتع بها هذا الفن الذي يعد بحق .. متنفس الجماهير ...

وجه عصرنا ...

أيمكن ان تدل هذه السحنات المتغيرة والمتقلبة ، على شيء له كيان واحد ... يمكن ان يكون صفة لعصرنا او لسنواتنا ؟!

أيمكن ان تفصح هذه الوجوه المستورة بالرمز والشعرية عن غموضها.؟ هل يمكن ان تنسجم هذه الملامح في شكل واحد له اسم ؟!

.. وجه عصرنا .. !!

انه لغريب ان نحاول لم شتات فنوننا ، ثم الحكم من خلالها على عصرنا ... ولكن وجه الغرابة يزول حتما عندما نلاحظ ان الفن ليس الا نفسية الجماهير مصاغة في كلمات وانغام والوان .. وكما بينا في مقدمة مقالنا ، يصبح الفن بصورة عامة وسيلة اولئك الذين ما عاد في استطاعتهم ان يكرروا الهرب من التوتر العصري ،كما يفعل الجمهور ، بواسطة السينما احيانا ، وبالاغنيات الجنسية والحشيش والمقاهى والنرد احيانا اخرى .. يصبح الفن وسيلتهم لابلاغ هذا التوتر المرن الى بلادة الاخرين .. فالفن بكل صورة ، هو علامة لنا .. وبالطبع تستثنى من ذلك الوان الفنون التي هي صخابة قبل ان تكون محسوسة ، كالتجريد والتكعيب والمدرسة النفسية و .. و .. فكل هذه المجموعة ليست الا رموزا عن داخل الفنان ، فاذا فض هذا الفم المختوم وضحت الاعماق هزيلة صفراء قشرية تستحق الرثاء ...

الفن هو علامة لنا ، واملنا .. فكل ما ينبئنا به موجود فينا بصورة او باخرى ، والفنان الجاد موصول بالحق وبالجمال والاخلاق ، من خلال اتصاله بعفوية الاخرين .. بحريتهم ، ولان هذا الاتصال هو كل روحه ومزاياه ، تصبح كلماته تعبيرا اكثر دقة وفنية عن كلمات الاخرين الذين هم في قمة العفوية ، يعيشون حريتهم وحياتهم بدون ان يفكروها اويزنوها ، ولذلك تصبح ملاحظتها عسيرة عليهم ومستحيلة ، ومن هنا يصبح ضروريا للفنان ان يبتر مزاجه الذاتي في خوض الحياة ، ليمسك اليه خوض الاخرين في حياتهم .. وتصبح كلماته لاصقة بواقع البشر وحماقاتهم ...

فالفن هو حياتنا معروضة في صور .. واختلاف نوعية الفنون يمنحها سعة عظيمة تستطيع في مداها ان تباشر عرض كافة قضايانا ومشاعرنا .. فاذا استطعنا ان نجد الصلة او الخيط المشترك الذي يلم نوعيات الفنون المختلفة في عقد واحد ، امكننا ان نحكم على صورتها العامة من خلال هذه الملامح المعروضة ... وقد حاولنا في النماذج السابقة ان ننشر صورة عن الملامح البائنة في كل فن ، ومقدار انتماء هذه الملامح للفكرة التي عرضناها في المقدمة . فالفنون ما زالت فردية تعالج الم الفرد وانسحاقه التام ، ثم تصل الى الفرد في قمة عزلته واضطرابه ، فتسهم من ناحية بالقضاء على البقية الباقية من أمنه ، في حين يمكن له ان يهيء ذهن الفرد للتحول العصري المرتقب ...

وقد بينا كيف ان الشعر يعرض للتوتر في صورة بحث عن عالم طيب اخر ، يسكنه انسان اما مسيحي ، واما بطولي ... ويسجل الشعر في منتصف قرننا على يد اودن بالذات وزمرة تلامذته علمية الواقع المادي ، خلال سخريته المرة من الخرافة والوثنية ... واليوت من ناحية اخرى يطالب بتنحية الانسان صانع المحرك، وتثبيت الرجل مالك القلب والمشاعر ، فليس المطلوب هو السعادة ، بقدر ما هو الامان والاخلاص ... وهذه النظرة المزيفة للانسان تكشف عن المدى الذي وصل اليه الفرد المعاصر من حزن وبحث عن المخرج.. فأي حل يمكن ان يكون بالنسبة اليه القرار النهائي ، ما دام تمسكه بهذا الحل المرتجل ، يؤخر لبضعة ساعات مجيء النهاية المدمرة ...

فالشاعر يريد ان يوصل الى الاخرين المعاناة التي يخوضها في سبيل اكتشاف عالم جديد كله عدالة وحب وامان .. وصحيح انها نظرة مثالية، كما هو صحيح ان كل الشعراء مثاليون ، ولكننا على النقيض ... لا نبحث في ذلك ، بل نكشف عن صدقهم ومدى اخلاصهم في الكشف عن غور الناس الذين يعيشون بدون ان يلحظوا شيئا : انهم يلعبون الورق . يقطعونه ويوزعونه .. ويرشفون احيانا من كوب بجوارهم : شاي . كوكاكولا .. ثم يحدقون في المارة خلال الادوار .. : سمينة .! كلا انها من النوع المطلوب .. فقط لاحظ الساقين !!

ثم يعودون الى المنزل : ما العشاء ؟!.. بطاطس او عدس .. ويضاجعون نساءهم في شبق ولهان .. ثم ينامون ، كالعادة اولا على الجنب الايسر ، فذلك يهضم المسلى البلدي .. وفي النهابة تتراجع صور اليوم

وزحمته في رؤوسهم البليدة .. ويضحون متوحدين ، فمهما كانت الصداقات عميقة ، ومهما كان الحب رائعا .. فالانسان ينغلق في النهاية على ذاته في الوحدة ، وفي النوم ، وفي الموت .. بهذه الصورة التجريدية .. .

الشاعر يجمع كل ذلك ثم يغني هذه العزلة الميتافيزيقية ، ويود ان يصل هذه الفجاجة في الناس بشيء له اصول : بنظرية ، بايمان .. بغرام .. بشيء يمكن ان يحرك في هذه المعادن مشاعرها واحزانها ، بشيء يمكن ان يصبح في مكان القلب منهم .. له حرارته ودقته وضرورته ..

ولذلك يخترع المذهب كما فعل اودن والوار ، ويخترع الخرافة كما فعل اليوت وفروست وستيفنز . ويخترع الوصل الشعوري كما فعل حكمت ورضا توفيق ولوركا .. ويكتشف مئات الوسائل للوصول الى الانسان ثم تغييره ...

وكذلك الرواية التي هي فن ابراز الحرية في الاخرين ، تود ان تعجل بهذا التغيير ،فتخوض في السياسة وتبارز الحكومات ، وتعلن عن التحول اكثر مما تفعل الفنون الاخرى .. وليس من ناحية الكم يمكن ان نشهد هذه الروح ، فثمة الاف الروايات تقرأ ثم تذوى في سكون .. وثمة رواية وحيدة تخرج في صمت ليكون لها دوي يصم الاذان لعدة قرون ، كما تفعل رواية جيورجيو العجيبة التي هي روح قرننا !.. فالفرد المسكين الذي يقصف رقبته هذا الثقل الميكانيكي العظيم ، يجد في الرواية الخلاص من ازمة توتره وجنوحه الى الانتحار .. وهذا التصميم الذي تبثه في الناس الرواية الحديثة ، يساعد من جهة في القضاء على البشاعة والاحساس بالطفو ، اي بالذات العدمية والزيادة على الكون ، ومن ناحية اخرى يحصل على الايمان بالتاريخ الانساني والارادة الانسانية . فمهما يكن اليس الانسان حرا ليختار ويرفض ويقرر !!.. اليس علي ان اكافح واصمم واعرق واسجن واجلد واموت كي يصبح اشقائي البشر اقل عرضة للمرض واقل فقرا واقل جهلا !؟ اليس ذلك من واجب الذي يقود ويعين ويرسم الطريق ؟!

فالروائي يمكن ان يكون النبي الذي يسجل بحساسيته الممتازة ، روعة اللحظة التي يصل فيها الانسان الى منتهى بؤسسه ولا امله ، ومن هذا التسجيل المفترض لا بد ان يصحح الاوضاع بالنسبة للظروف والزمن ولذلك يتطلب هذا الفن ان يكون الكاتب اشد ما يكون صلة بالاوضاع في وطنه وفي العالم ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ونفسيا ، لان عليه ان يعيد الى العالم البراءة والطهر والامل .. خلال تاكيده على ايضاح الجريمة والهمجية والخور ، والذل والوحشية ..

ويمكن بالطبع ان نقارن عددا من روائيي هذا العصر الذي ما زال فن القرن التاسع عشر يسيطر على انتهاجهم ، بزمرة اخرى من الروائيين يكافحون من اجل مجد الانسان .

ففي الصف الاول نجد همنجواي . موم . مالابرته . مورافيا . توماس مان . مولك راج .

وفي الصف الثاني نجد جيورجيو . كازانتزاكيس . سارتر . مالرو سيلوني، فولكنر. الصفان على طرفي نقيض، الاولون منهم لم يدركوا تحول العصر فصوروا امانة المشكلة الفردية في عزلة عن العصر والتاريخ.. بعكس الاخرين الذين ادركوا هذا التحول العظيم الذي ارعب بعضهم واخر نضج البعض ، في حين ازدادت نسبة الامل عند سيلوني وكازانتزاكيس .

اما الرسم فهو الفن الاكثر فردية بين الفنون ، لانه التعبير الاكثر خصوصية عن ذات الفنان .. فالالوان هيصراعات وامنياتداخلية، وكذلك الخطوط والموضوعات .. ويمكن ان نلاحظ ذلك في رسومات موريس اندريه وارنست فوش ، وريجنالد مارس ، الامريكي العظيم الذي توفي عام ١٩٥٤ . فكل ممثل من هؤلاء له طعمه الخاص ، ومذاقه الخاص للالوان والموضوعات ، بصرف النظر عن تباين الخصائص واختلاف التقنية ، فاللون المستعمل عند هذا وذاك يختلف في الايقاع عند الاثنين ، لان لكل منهما بؤرة نظر تختلف سقوطا وارتفاعا عن الاخر .. ولان مشاعر هذا تختلف عن مشاعر ذاك ، فمن كل هذا الامتلاء الحار واللزج للحياة والاخرين يجد الرسام العصري موضوعاته وملوناته ...

وكما ان رسام الازهار والفازات والشواطيء موجود بكل سخفه وغندرته فان رسام القلب الانساني والالم موجود بكل جسارته واعتداده . ذلك جمالي وهذا اخلاقي .. وهنا يؤكد هذا الفن العجيب افتراق الجمال عن الاخلاق ، فلوحة ما يمكن ان تكون رائعة اخلاقيا بدون ان تكون جميلة، والعكس صحيح.. والنوعان موجودان.. على ان الفنان الحقيقي هو الذي يتصل اكثر مايتصل بالموضوعات الانسانية، فيعيشها ويحييها ويعلن عن رضائه او لا رضائه بالاوضاع والنفسيات، كما فعل مارش في اعماله المائة والستين..ففي لوحته(غابة شرقي الشارع العاشر) ... ١٩٣٤ نلاحظ في الحركة الصخابة التي تضج بها اللوحة ، وفي التعب الاصفر المكسوة به وجوه مريضة .... تخلع احذية مغبرة ، او تشعل النار او تتحدث او تكشط غابات ذقونها ... نلاحظ في كل هذه توترا دفينا صامتا .. حزنا وكآبة ومرارة ، ففي كل نظرة تعاسة الوحدة ، على حين لا يفصله عن الجمهور سوى شبر واحد هو مسافة الفرق بين الجسد والجسد .. ومع ذلك فكل فرد هو وحيد حتى الموت ..

وفي لوحة اخرى (جزيرة كونى) ١٩٥١ نلاحظ لزوجة الاجساد ، سواء الطائرة في الهواء ، او الملقاة على رمال الشاطيء .. وفي وسط هذا الهرج الغريب نشهد نفس الوحدة والتعاسة في الاعين الزرقاء المهدمة بعيدا ، وفي الاطراقات المنكسة ، وفي وجوه بدون ملامح ...

ايستطيع هذا الملاحظ الفذ ان يفش كما غش زميله الايسلندي يوهانس كجارفال ، فصور الجليد في الشفق الوردي ، ومركبا شراعيا يرحل في ضوء اخاذ ؟! على ان ذلك لم يكن منظورا منذ البداية فبعض الرسامين يستعملون الفن وسيلة ارضاء وامتاع ، هربا من كشف التوتر والقلق ..

كما تفعل السينما والمخدرات ، فذلك اسهل واكثر توصيلا للجمهور واجلب للربح ..!

منذ وجدت الموسيقى وهي تنشر في المستمعين السكينة والاطمئنان خلال الايقاع المسدد ببراعة الى قلب مليء بالاحزان ، وخلال النغم الذي يسمر المستمع في وحدته النشوانة المبهورة ، وفي الحس بالوحدة الذي يبعثه من مرقده في القلب ، لحن يتمزق حتى الالم ، يباشر التيار المتتابع مهمة تخليص الانسان من كآبته ، ومن صحرائه .

ان المستمع لا يتخيل ابدا في لحظة انصاته للحن ما ، صورة معينة ترمز بها الموسيقى ، انه لا يترجم النغم الى صور . بقدر ما يترجمه الى ذكريات ، وحتى هذه الصورة لا تأتي الا فيما بعد... اي في ختام الحفل السيمفوني .. اما في الاثناء التي نخوض فيها دوامة الاستماع ، فلا نفعل الا ان نجدد تعاستنا في كل نغم جديد ، ويصل بنا هذا التجديد المستمر الى الختام المعلن عنه ، وفي هذه اللحظة تسقط عنا كآبتنا ، لاننا عشنا كآبة انفسنا بالاضافة الى كآبة الملحن العظيمة ، وكما يسقط عن المريض بالوهم كل اضطرابه عندما يشاهد مريضا حقيقيا بمرض خطير .. تهرب من انفسنا كل صور الخور والجبن والتعاسة التي سيطرت علينا ...

وبالطبع ليس هذا التطهير الدرامي خلة من خلال كل ملحن ، فهناك جاك ايبير ، وكول بورتر ، وارفنج برلين ، وار مسترونج ، من الذين يوصلون المستمع الى الخض الجسدي الممتع ، ثم يسقطون حتى ذلك عنه ..

ان الملحن الحقيقي هو رجل من طراز بيتهوفن وماهلر وتشايكوفسكي ورحمانينوف . رجل في دمه كآبة ، وفي قلبه مصير ، وفي نفسه وحشة وفي يديه امل حيران .. كل ذلك من اجل ان يلاحظ وينبه على ابتعادنا عن المحبة والسلام ، ومن اجل ان يزعزع الهمجية والشر والبؤس في قلوبنا ..

ان الحضارة الحديثة تتأكد على يد ملحنين من طراز رحمانينوف، وليس على يد بروكوفياف او شوستاكوفتش ، وفي المحاضرة التي القاها ختشادوريان وصور فيها بابشع الالفاظ اعمال رواد الموسيقى الروسية المعاصرة ، نلاحظ ان ما يسميه النقاد : الموسيقى الاشتراكية ، هي عمل لم يزل بعد دون المستوى العالمي ، وحتى الاقليمي ، لانه مليء بالفجاجة والاعلان والسخف واللامعنى ..

فمن خلال الاسى الذاتي يؤكد الملحن انتماءه لعصره ، فاللحن هو صورة الامس واليوم ، لاتشوف للغد ، وللمستقبل .. ولذلك نجد انفسنا في (جزيرة الموتى) .. وكافة اوتيدات وبرولوجات وانترلودات وكونشرتات رحمانينوف اكثر مما نجدها في اعمال اي ملحن معاصر ..

اما المسرح فهو الماء الذي يطفيء حريقنا الداخلي ، وهو لذلك ، ومنذ ايوريبيدس يسيطر على احزاننا ويسقطها عنا دوما ، وهو ايضا السم الذي يلغ في كربنا ومذلتنا ، محاولا القضاء عليها ، او تثبيتها عند حدها ، مستعملا لذلك الاضطراب والسخط والكراهية ، ليسقط عنا كل ما هو زائف ومنحط ولا انساني.. ان المسرح الحديث يستنكف النظر الى الحياة والى البشر بمنظار المسرح اليوناني القديم ، فذلك قدري محض، ومتعلق بارادة السماء ، ولا شيء فيه بشري الا الضعف والمذلة ، ومسرح كهذا لا يمكنه ان يصعد بالارواح المنصتة في الصالة الى قمة وجدانها ، ذلك لان الحوار ذاته يؤكد خنوع الانسان بازاء القدر ، فالجمل الخالدة التي تكررها عبقريات الرواد الاولى للمسرح هي : لا فائدة من مصارعة المكتوب ، فلنرض بقسمتنا .. او فلنمت دون كبرياء !

لا وجود للصراع ، طالما كانت الخاتمة معروفة ، فمن يمكنه ان يتغلب على جوبيتر ومجموعة الارباب الاخرين ؟! فحتى الحس الرائع بالتوحد، الذي يجب ان ينشره المسرح ، لا يمكنه ان يبعث المسرح اليوناني الا مصحوبا بالوعيد السماوي وبالضعة ..

ومنذ سترندبرج حتى اونيل وبريخت ، بدأت المسرحية تخوض المعارك التي كان لا بد ان تخوضها منذ ازمنة : الانسان ضد الانسان ، وضد الوضع ، وضد القسر .. ولا بد ان ينتصر الانسان مهما كانت الطعنات مباشرة ونافذة ، فلا بد ان يأتي الاخر الذي يتحمل ثقل زميله ، ويموت في المشاركة .. الاخر تلو الاخر ...

واصبح الصراع انسانيا ، وبالطبع ما زالت هناك الكراهية ، والاحقاد ، والهموم ، والاحزان .. ولكنها ابدا خفيفة على القلب ، لانها احقاد اناس في التحول .. في تيار منعطف اخاذ ...

هي هذه ... فنون عصرنا ، وهذا موقفها بازاء الناس والعصر ، ومن خلال هذا الموقف يتكشف لنا جليا ، ان الفن يهييء أذهاننا جديا لتقبل وضعنا الجديد ، وذلك من خلال تأكيده المشع على توترنا واستجابتنا السريعة لدواعي الحزن والكرب ، والفنون تعرف ذلك ، تعرف ان القلب الانساني اسرع الى الحزن منه الى الفرح ، وذلك لاننا نحيا مأساة وجود ممزق ، وبدون تحديد .

الفنون تسأل : من نحن ؟! وما هو الحب .. والامان ؟! واجابات تتعدد ولكنها تنحصر في الانسان وفي ارادته ، ففنوننا قد تطورت من التهويم الى الرياضة ، ومن الشفقة الى العدل ، ومن الاثارة الى المسئولية ... وبذلك استطاعت ان تقف على الاقل في نفس محور التحول الضروري خلال انتقالها المؤثر عبر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. وقد كشف الفن عن التوتر العصري ، فهل يكتفي بذلك ؟!.

قريبا :

الاشتراكيون العرب

تأليف

الدكتور كلوفيس مقصود

منشورات دار الآداب

اذا لم يكن الجواب مدفونا في صميم العمل الفني ، امكننا ان نتهمه بالتحول الى الجمالية ، فليس العمل الفني كشافا بقدر ما هو قضية انسانية ، مهتمها رفع الفرد من ظلمات التقاليد والبربرية ..

يجب ان يكون الجواب الاخلاقي مدفونا في قلب فنوننا الجديدة ، بصورة تأهيل للفرد ، لقبول الوضع الناشيء عن تحول العصر ، ومن هنا يمكنه ان يحول القلق خلال التصعيد به الى الامان الذي يطلبه الفرد الملح... ان على الفن الراهن مهمة احياء هذه القلوب الفردة التي يقتلها المرض النفسي فتتحول الى الجواب الطبيعي : العزلة ..! وقد كانت هذه العزلة منذ ازمنة ، الرد المسبق اللاصق بحنجرة الافراد ازاء تطلب الوضع اشتراك هؤلاء الافراد في خوض الحياة العامة ، انهم يجيبون بـ « لا » ، عريضة وفي حسم .. وتخسر البشرية الاف الافراد الذين يمكن انتستعين بهم ، وفي عصرنا هذا المجنون ، ازداد الرقم الى ملايين، وخاصة في اوروبا التي عانت اهوال حربين بشعتين ... اصبح الافراد يطيعون كل حركة تطلب منهم العودة الى الوحشية ، والى الطبيعة ، والى الطفولة ..! واحيانا الى البراءة ... مصدقين هذه الحركات العجيبة التي يهتم اكثرها ويؤكد على حرية الفرد وعلى ارادته .. بدون النظر في الاعتبارات الاهم التي هي الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي ... بالاضافة الى الارادة الفردية واحكام الوراثة والاهلية الخاصة .. ! ان الاوروبي هو الذي عانى اقسى فترات هذه المحنة الانسانية الهائلة ، وما زال يعانيها للان ، على ان الشرقي الحديث استطاع خلال وعيه بمعاناة الاوروبي ، وخلال اكتشافه المتأخر لزيف الجواب الديني وسخفه ، ان ينزل الى هذه المخاضة حتى ركبتيه ، وقد امكن لبعض الكتاب في الشرق ان يصوروا هذا التوتر في بضعة روايات وقصائد ، اثبتت ان الشرقي يعاني من نفس المأساة التي يعانيها الاوروبي الحديث ، وان لم تكن معاناة بنفس الدرجة والخصوبة ...!!

★

والان ...

ذلك هو وجه عصرنا ... فهل يكفي ان نلقى الضوء عليه ؟؟! هل يكفي ان نقول : ذلك هو مرض امراضنا ، وسم سمومنا ... ان على الفن ان يتجاوز ذلك ، فبدل ان يغش الافراد بتلك النظريات والمذاهب ، التي هي فروع صغيرة لاحكام الديانات الكلاسيكية والمنطق التقليدي ، وبدل ان ينضووا في تعاليمها الفاسدة التي تؤكد وعيا معكوسا ، وجب على الفن ان يسهم في بتر القلق والتوتر الذي هو سبب هام لنكسة الفرد وتحوله الى عباداته الصنمية : العزلة . مرض الاعصاب ـ الجمود ..

ومن الباطن فقط يمكن للفن ان يزرع هذا الحجر الثقيل من فوق القلب البشري المعذب ، فللفن فقط هذه القدرة السحرية التي يمكنها ان تحول المرارة الى فرج ، والتوتر الى شعور دافق بالامان ..

العصر يتحول ، والفرد لا يقبل هذا التحول الضروري ، وقد كشف الفن عن موقف الفرد الهروبي ازاء هذا التحول العظيم .. وتصبح قضية الفن التالية والاساسية في منتصف القرن العشرين ، هي الصعود بالفرد من مجرد الاحاطة باوهامه وتوتره ، الى التأكيد بضرورة انصياعه للحتمية العصرية ... لقد كان على الفن طيلة سنوات التقهقر هذه ، ان يدل بألمنا ، وانسحاقنا تحت وطأة اللافردية التي ينبيء عنها تيار عصرنا المندفع نحو الاشتراكية ، وقد ادى فننا هذا الدور بمهارة : اشار وصاح وصرخ وبكى فوق جثة العصر الذي انتهى ببداية القرن العشرين : عصر فختنه وهيلدرلين وابشندورف ... وكان مستحيلا ان يظل الفن مستمرا في عملية النواح هذه ، في حين يشى العصر في كل لحظة بمفهومه الجديد الذي يعد الافراد بالامن والسعادة بدون ان يفقدوا شيئا ..

ولم يجد الفن امامه سوى طريقين : مشاركة الانسان الفار عويله ونواحه ، او القضاء على خوفه واشاعة الامان في حياته القلقة ..

ومنذ لحظة الافتراق هذه ، وجو الفن ان عليه ان يخوض الطريق الاول جاثيا على ركبتيه كي يصل بالناس الى منتهى اشراق الطريق الاخر ..

وقد قاست البشرية اهوالا ، وعاصرت مذابح وعمليات قتل واحراق وتدمير وتخريب ، في سبيل ان تصل الى الاشتراكية ، وقاسى الفن كذلك ما قاست البشرية ، لانه التعبير عنها ، قاسى الطغيان والتكبيل وتكميم الافواه وحرق الكلمات في الورق ، وفي الحناجر .. قاسى كل ذلك، كي يمكنه ان يطل على الصباح نفسه الذي تطل عليه العصور ..

بيد ان رسالته ليست في مجرد تهيئة الاذهان لذلك ، فالكلمة كالقبضة ، سلاح هجوم ـ ولذلك ارتبطت الفنون باوضاع العصور كلها . عبرت عنها ودافعت عن انسانها ضد كافة الوان التقييد والجمود ، وقد كان الفنان شهيدا يموت من اجل التعبير عن افكار الناس ، ومن اجل تطويرهم .. واحتاج ان يبتكر الف شكل مرموز للتغرير بالسلطة : رسم قصة الخلق،

وصفح ارداف داوود ، وعبر بقصص الحيوان والطيور عن مشاكل كل الملك والسياسة ..

كل ذلك لانه كان مسلسلا بعالمه ولحظته ومشاكل دنياه .

ان نقطة انطلاق الفكر الاوروبي الحديث هي مطالبة المفكرين الملحة والدؤوبة بحرية الفكر ، ومقاومتهم لكل حركة فوقية تريد اهدار هذا الحق : وقد قدموا اجسادهم طعاما لنيران الجهل والتأخر والبربرية ..

وفي عصرنا هذا يجد الفن ان عليه عبء تحويل هذه الاذهان ، من المسار الميت الذي اعتادوه ، الى مخاضة عصرية .. ويضاعف هذا العبء ، تمسك الفرد بكافة وسائل هروبه : المخدرات والملاهي والجنون والشذوذ ، وكل ما هو جديد ويعطي لذة جديدة .. ووجد الفن ان عليه ان يحارب الشك والسخرية واللؤم واللامبالاة ، ضمن معاركه المشرفة القديمة وهي التطوير والتعميق والاحساس والاخلاقية .

وقد كان عليه ان ينفذ الى اوهام الناس اولا ، كي يبددها من الداخل، واصبح الان في مواجهة تيار من الاعين الفاحصة التي تسأل : ماذا يراد بنا؟ ولماذا لا نترك في وحدتنا ؟.

وكان على الفن ان يجيب، وان يهديء ، وان يقنع ، وان يحمس ...

وهكذا تحول الفن ، من تزيين غرف النوم ، وتنشيط اذهان الطبقة العليا ، الى نزع ديدان الجهل والشكوك والهروبية التي تنهش مخ الفرد المعاصر ...

ان الفن الاوروبي النبيل القوي ، يعلن عن امجاده .. وينصر انسانه .

*

... وفي نفس العصر ، وبدون دقيقة تأخير ، يعيش الشرق في اكفانه السود ، مغمضا عينيه ، متأخرا الف عام ، وفي ذهنه حروب الجاهلية وثقافة ضيقة ، وذكريات قاحلة من اهمها تراجم ارسطاطاليس، وشاعران او ثلاثة !.. واذا اريد لهذه الجثة الحية ان تتحرك فلا بد لهذه الحركة من وسط تباشر فيه فعاليتها .. لا بد من وسط نظيف ..

لا بد ان ننطلق من نفس النقطة التي انطلق منها الغرب : اي من حرية الفكر ... ولا بد ان ننادي بذلك وان نموت في سبيله ، ففرط الانكفاء على عقيدتنا يقتلنا ، ويعود بنا الى الالف من السنوات مضت .. لا بد ان نمزق هذه السدف الكثيفة التي تحجب عن ذهننا النور:نورنا ذاته واذا قتل منا عشرة او الف .. فالزمن معنا ، الزمن والحاجة والمنطق!..

لا بد ان يكون لنا شهداء فكر ... لا بد ان يحرق ويصلب ويموت رجال آمنوا بهذه الحرية ، ليمكن لنا ان نخوض عالما اكثر اشراقا ، واشد صفاء، واقل عصبية ..

ما زالت حاجتنا في الشرق ، وما ازل طلبنا البكر : مزيدا من الشهداء.

فكم في تاريخنا من أحرق في سبيل حرية الفكر، وفي سبيل شجب الهمجية والتقاليد ؟..

كم في تاريخنا من طردته السلطات ، لانه يريد ان يغير المجتمع والذهن البليد العام ؟!.

لا احد !..

ذلك لاننا نخشى مصائرنا الشخصية ،ونرهب سلطة الدين والحكومة، ونقول : لا فائدة !!

نحن نحتاج شهداء يصلبون من اجل الحرية ، كما احتاجت القرون الوسطى لذلك .. فمن خلال هذا اللهب المجرم يمكن للذهن البربري ان يفكر : ما أعند هذا الخصام بين هذا الرجل وبيني .. فاذا كان يموت بهذه الصلابة ، فثمة حقيقة اذن في عناده .. ولماذا لا يكون على صواب؟! وما اظهر موته !..

الشهداء.. والمنطق.. والزمن !! ويمكن لنا ان نأمل في حضارة عظيمة. ويمكن لفجرنا الذي تأخر حتى الان ، ان يبزغ فيبدد هذه الخفافيش التي سكنت القبور ، فطالبت ان تكون كل البيوت قبورا ..

ان الذي يحكمنا الان هو مثوى مسيج بالحديد ، يحكمنا ويحكم فنوننا وذهننا ... فكما تخلص الغرب من هذا المثوى الملطخ بزيت القداسات ، يمكن لنا ان نتخلص منه ، في نزوعنا الى التأكيد على حرية الفكر وعلى طلب العدالة ...

ان النزعة الاوروبية الحديثة ، في الدعوة الى الاشتراكية ، هي تطور حدث في جذور الثقافة الاوربية . بدأت بشهداء المخالفين السياسيين ، ثم تطورت الى شهداء المسيحية .ثم الى شهداء العلم .. وفي عصرنا هذا نشهد الخاتمة في الدعوة الى التحرر من كل الاوهام والتقليدية ، بالانصياع الى روح العصر : الاشتراكية ..

فاذا نقلنا ـ كشرقيين ـ شكل فنونهم وغلافها الخارجي ، تأكيدا بتطورنا، فاننا لا ندل الا بسطحيتنا وقشريتنا وبساطتنا .. فشكل الفنون ، وضميرها في الغرب هو امتداد وضعها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي منذ اقدم العصور ، فليس يكفي ان نستعير فنونهم كي ندلل بتطورنا ... اذ يجب ان نحارب المخاوف التي حاربوها ، ونخوض الوحل الذي خاضوه ، ونقاوم الفجاجة التي قاوموها . ان نخدل وان نذل ، وان نشعر بالجرم ذاته الذي شعر به كتابهم ومفكروهم ..

الانسان عندنا ما زال يؤمن بالتقاليد .. فلنخرب التقاليد ...

الانسان عندنا ما زال يدافع عن الخرافة .. فلنشوه دفاعه ... ولندعم الحرية ..

وما زال على الفن هنا ان يحظى بثقة الجمهور اولا .. قبل ان يعلن الحرب على اوثان هذا الجمهور وارباب،والثقة تأتي من فهمنا لروحه ونفسيته.

لقد كشف الفن الغربي عن قلق انسانه ، وبشر بتحوله .. فلماذا يخشى الفن الشرقي اجتياز هذه المخاضة ؟!.

لماذا يجمد فننا عن محاولة كشف انساننا ازاء التحول العصري العظيم في الغرب ..؟!

القاهرة

محي الدين محمد

صدر حديثا

عروبه وانسانيه

مباحث في الاجتماع والفلسفة

بقلم

محمد وهبي

منشورات عويدات